



الجمهورية الإسلامية المقدسية
مجلس شورى الفكرية والثقافية

مَجَالِكُ فِتْوَى الدِّفَاعِ الْمُقَدَّسِ الثَّقَانِي الْأَوْلَى

تَحْتِ شِعَارِ

مِثْلُ الْعُلَمَاءِ وَكَمَالِ الشُّهَدَاءِ نَحْفَظُ أَرْضَ الْأَنْبِيَاءِ

قراءة في فتوى الدفاع المقدس
للإمام السيستاني

م. عمار ياسر العامري / تاريخ العراق الحديث

المقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، الْحَمْدُ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْأَحَدِ، وَالصَّلَاةُ عَلَى سَيِّدِ الْأَنْبَاءِ
الْمُصْطَفَى الْأَعْجَدِ أَبِي الْقَاسِمِ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ أَوْتَادِ الْأَرْضِ وَخَيْرِ مَنْ سَارَ عَلَيْهَا وَسَجَدُوا،
وَسَلَّمُوا تَسْلِيمًا كَثِيرًا... ..

تعد زعامة المؤسسة الدينية الشيعية (المرجعية الدينية العليا في النجف الاشرف)
الأقوى قراراً بين الزعامات الدينية في العالم الإسلامي والديانات الأخرى، وأصوبها
رأياً، وأكثرها استقلالاً، طيلة مئات السنين الماضية، منذ أن وطأ الشيخ الطوسي
ارض النجف الاشرف عام ٤٤٨هـ / ١٠٢٧م حتى تقلد سماحة المرجع الديني
الأعلى الأمام علي الحسيني السيستاني زعامة الحوزة العلمية في النجف الاشرف عام
١٩٩٣م / ١٤١٣هـ.

وخلال تلك السنين الطوال، بقيت زعامة المؤسسة الدينية بعيدة عن التجاذبات
السياسية والتأثيرات الخارجية؛ لان اختيار الزعيم أو المرجع الأعلى للحوزة العلمية
لا يكون بقرار حكومي أو اختياري من عامة الناس، إنما مسؤولية الاختيار منوط
بتوجيه الإمام الحجة بن الحسن المنتظر عليه السلام كون من يتم اختياره لهذه المهمة يكون
نائباً للإمام المعصوم عليه السلام في زمن الغيبة الصغرى، كما ورد في توقيع الشريف: «وأما
الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا، فإنهم حجتي عليكم وأنا حجة الله»،
وإن المرجعية الدينية العليا، تعد زعامة الأمة الإسلامية عامة، والطائفة الشيعية خاصة،
وتتمتع باتخاذ القرار المؤثر روحياً وعقائدياً في نفوس المسلمين، وبالخصوص أتباع أهل
البيت عليهم السلام في الأمور كافة.

وقد مرت مرجعية الإمام السيستاني بعدة مراحل مهمة ومؤثرة، فالمرحلة الأولى، تجسدت في مسؤوليته بالمحافظة على كيان الحوزة العلمية في النجف الاشراف من سطوة الدكتاتور الظالم بعد وفاة السيد أبي القاسم الخوئي، حيث شكل بذلك تحدياً كبيراً لمستقبل التشيع في العراق، والمرحلة الثانية، مواكبة التغييرات السياسية التي حدثت بعد عام ٢٠٠٣م، إذ إن رؤيته وحكمته تمثل عين الصواب لموقع القيادة، والذي كان خير من يمثلها باتخاذ الموقف المناسب لمعالجة التحديات الخطيرة تجاه أبناء الشعب العراقي، وكان التحدي الأول: دعوته للعراقيين كافة للمشاركة بالاستفتاء على الدستور الدائم عام ٢٠٠٥م ورفض سماحته الإملاءات الأمريكية بكتابة دستور بالنيابة عن العراقيين، ولاختيار النظام السياسي الملائم لطبيعة التنوع الاجتماعي والمذهبي والقومي في البلاد، والتحدي الثاني: يكمن في إخماده لنار الطائفية بعد تعرض مرقد الإمامين العسكريين عليهما السلام عام ٢٠٠٦م للتفجير من قبل الزمر التكفيرية، ودعوته أتباع أهل البيت عليهم السلام للتحلي بالصبر وضبط النفس، لتفويت الفرصة على أعداء الوطن والمذهب.

أما المرحلة الثالثة؛ فتمثل رأس الحكمة وقوة الإرادة، عندما تعرض العراق لاجتياح العصابات الإرهابية لمدينة الموصل في ١٠ حزيران ٢٠١٤م، فبادر سماحته إلى إصدار فتواه العظيمة (الدفاع المقدس) والتي لم تصدر مثلتها في العالم الإسلامي منذ مئة عام خلت، ورغم التشابه بنوع الفتوى، إلا أن الظروف والتداعيات تختلف كلياً بينهما، ما جعل البصائر تشير إلى أن هناك بُعداً غيبياً وتدخلأً فيضياً من قبل الإمام المهدي المنتظر عليه السلام في إصدارها؛ لأن فيها حقناً لدماء المسلمين، وحفظاً لموطن الأنبياء والأوصياء عليهم السلام وصيانة للمقدسات، وهذا ما جعلها في أعلى درجات القداسة، لهذا فإن للفتوى المباركة مضامين متعددة لا يمكن إجمالها في نقاش محدد أو اختصارها في موضوع معين.

الباحث

المبحث الأول

المعنى العام للجهاد

الجهاد: المراد به هو القتال لإعلاء كلمة الإسلام وإقامة شعائر الإيمان، إذا بغت أي طائفة على طائفة، فإنه يجب على سائر المسلمين أن يقوموا بالدفاع عن أنفسهم ومقدساتهم، فإن ظلت تلك الطائفة الباغية على بغيتها قاتلوها حتى تفيء إلى أمر الله،^(١) وقال الله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾.^(٢)

معنى الخاص للجهاد الكفائي

الجهاد الكفائي؛ بمعنى أن من يتصدى للعدو، وكانت فيه الكفاية بحيث يتحقق الغرض، وهو حفظ البلاد وشعبه ومقدساته يسقط عن الباقي، وتوضيح ذلك بمثال، أنه إذا تصدى عشرة آلاف وتحقق الغرض منهم سقط عن الباقي، فإن لم يتحقق وجب على البقية وهكذا.^(٣)

ومن هنا فإن على المواطنين الذين يتمكنون من حمل السلاح والمقاتلة دفاعاً عن بلدهم وشعبهم ومقدساتهم، التطوع للانخراط في القوات الأمنية لتحقيق هذا الغرض المقدس.

الأسباب الموجبة لإصدار الفتاوى

إن المرجعية الدينية العليا، تتأني كثيراً وتدقق ملياً قبل إصدار أي فتوى، لاسيما

(١) السيد أبو القاسم الخوئي، منهاج الصالحين، الجزء ١، كتاب العبادات، النجف الاشرف، ١٩٩٠، ص ٣٦٠.

(٢) سورة الحجرات، الآية ٩.

(٣) الشيخ عبد المهدي الكربلائي، وكيل الإمام السيستاني، خطبة صلاة الجمعة في الصحن الحسيني، بتاريخ ٧ شعبان ١٤٣٥ هـ الموافق ١٣ حزيران ٢٠١٤.

إذا كانت في باب الجهاد؛ لأن بسببها سيكون هناك قتل للأنفس وسفك للدماء وتدمير للممتلكات، وكل هذا من الأمور التي لا يمكن التفريط فيها، ولكن التحديات والظروف قد تدفع إلى إعلان الجهاد كحل أخير لمواجهة العدو المتربص بأحوال المسلمين ومقدساتهم.

لذا فإن فتوى السيد كاظم اليزدي ضد الاحتلال البريطاني، كانت فتوى بالجهاد الكفائي (الدفاعي) لمواجهة القوات البريطانية الغازية، التي بدأت احتلالها العراق عام ١٩١٤م عندما نزلت قواتها في مدينة الفاو جنوبي العراق، وقد استخدم السيد اليزدي في فتواه عبارات (وجوب الدفاع) و(يجب عليكم الدفاع) وذلك للتمييز بين (الجهاد الهجومي أو الابتدائي) وهو الجهاد الذي انطلقت من خلاله الفتوحات الإسلامية ودعوة المشركين للإسلام، وله شروطه وظروفه الخاصة، وبين (الجهاد الدفاعي) وهو ضرورة التصدي لمواجهة العدو والاحتلال.

وهناك نوعان من الجهاد الدفاعي هما: (الجهاد الكفائي) أي يجب تصدي عدد من المسلمين بما يكفي لصد أي عدوان عليهم، وإذا لم يكفِ العدد المتصدي يجب تطوع عدد آخر حتى يتم صد ذلك العدوان، والثاني هو (الجهاد العيني) وهو (فرض عين) على الجميع بلا استثناء، وعلى أن يتركوا أعمالهم ومصالحهم ويلتحقوا بالقوات المتطوعة.

تحديد مساحات الإرهاب

إن مشكلة الإرهاب تعتبر مشكلة عالمية، وبدأ المجتمع الدولي يعاني من خطورتها، لاسيما وإن مصطلح الإرهاب أخذ يتصدر أغلب اللقاءات الدبلوماسية ووسائل الإعلام المرئي والسمعي.

وإن حقيقة الإرهاب مبنية على أن فكراً يعتقد مروجوه أنه هو الأصح دون غيره، لذا يستعملون معه طريقة العنف لإثباته، والمجتمع الدولي يعاني من هذه المشكلة، وقد عانى العراق من هذه المشكلة وما زال من خلال العمليات التي لا تصنف إلا في خانة الإرهاب، منها: تفجيرات واستهداف الأبرياء، وتفجير المجالس والتجمعات العامة، حيث هؤلاء يعتقدون أن جزء من يختلف مع أفكارهم ومعتقداتهم هو العنف وقتل، وإن قضية التكفير أصبحت قضية دولية، ولا تخص العراق أو بعض الدول فحسب، وإنما أمست قضية تخص المجتمع العالمي، وإن العراق دفع الكثير من الدماء جراء هذه الأفكار^(١).

وإن عدم وجود قناعات حقيقية بهذه الآفة المسمومة لا يعني غض النظر عن حواضنها أو مموليها أو المروجين لها، والجميع يرى أن الاستهداف يكون غدرًا، وليس هناك منازلة واضحة في معاركها، كأن تكون قوة مقابل قوة، وإنما تكون استهدافاً للتجمعات البريئة، سواء كانوا أطفالاً أو أسواقاً أو غيرها، وهذا الأمر ما جاء إلا من خلال القناعة بمعتقد مبني على العنف، لذا فإن المسؤولية تقع على المجتمع الدولي أولاً؛ لإيجاد الحلول الجذرية لها، وأن تبذل الإمكانيات كافة للقضاء على الإرهاب، وإلا ستكون النتائج وخيمة ولا يُحمد عقباه؛ لأنها لا تستهدف جهة بعينها، إنما تنتشر كثيراً كما يحصل حالياً، وإن أهداف الإرهاب ليس إرهاباً منطقياً، وإنما هو إرهاب

(١) السيد احمد الصافي، وكيل الإمام السيستاني، خطبة صلاة الجمعة للمرجعية الدينية في

الصحن الحسيني، ١٥ ربيع الأول ١٤٣٥ هـ الموافق ١٧ كانون الثاني ٢٠١٤ م

إقليمي، ويمتد بشبكاته وخلاياه على مساحة الدول كافة، وإن آثاره المدمرة أصبحت واضحة في كل مكان يتحرك فيه، من خلال تشويهه بشع لصورة الإسلام الأصيل، والقيام بممارسات تندى لها مراحل التاريخ الإنساني الطويلة.^(١)

وإن الإرهاب أصبح متشعباً، واختلطت أوراقه بقوة، فلم يعد مجرد منظمات وجماعات إرهابية ذات أفكار منحرفة، وإنما أصبح متداخلاً مع الأجهزة الأمنية ومخابرات الدول الإقليمية والعالمية.^(٢)

التقديم لفتوى الدفاع المقدس

ابتدأت خطبة صلاة الجمعة المباركة بتاريخ ١٣ / ٦ / ٢٠١٦، بإشارة واضحة إلى خطورة الأوضاع الأمنية في العراق، بعد احتلال العصابات التكفيرية لمحافظة الموصل وصلاح الدين أو أجزاء منها.

حيث كان واضحاً أن داعش لن تكتفي بهذا الحد، إنما استراتيجية هدفها السيطرة على مناطق العراق كافة، وأن هدفهم المقبل هو التوجه نحو بغداد وكربلاء المقدسة والنجف الأشرف، وهذه المدن تحظى بقُدسية عظيمة لما تتضمنه من عتبات مقدسة.

وكانت هذه هي المقدمة التي استهل الخطيب فيها الخطبة، ليبين للعراقيين أن: (مسؤولية التصدي لتلك العصابات ومقاتلتها هي مسؤولية الجميع، ولا يختص بطائفة دون أخرى أو مكون دون آخر)، إذ إن المسؤولية يتحملها العراقيون جميعاً، شيعة وسنة، مسلمين وغير مسلمين، ومن كل القوميات، وعلى مختلف توجهاتهم السياسية والاجتماعية،^(٣) وقد تضمنت الخطبة الأمور الآتية:

(١) السيد احمد الصافي، المصدر نفسه.

(٢) عمار ياسر العامري، الأبعاد السياسية والاجتماعية لفتوى الجهاد الكفائي، السواة، ٢٠١٦،

ص ٢٤.

(٣) صلاح عبد الرزاق، فتوى الجهاد للسيد السيستاني.. خلفيتها وظروفها، موقع جريدة البينة

الجديدة الالكتروني، بتاريخ ٢٢ / ٦ / ٢٠١٤ م.

١. تأكيد المرجع الأعلى الإمام السيستاني؛ على وحدة العراق وتحمل الجميع المسؤولية الوطنية والشرعية في هذه الظروف الصعبة، وأن العراقيين أكبر من هذه التحديات والمخاطر، لما عرف عنهم من الشجاعة والإقدام، ثم حدد المرجع الأعلى: (المسؤولية في الوقت الحاضر هي حفظ بلدنا العراق ومقدساته من مخاطر الإرهاب، وتوفير المزيد من العطاء والتضحيات في سبيل الحفاظ على وحدة البلاد وكرامته، وصيانة مقدساته).

٢. تأكيد الإمام السيستاني؛ على أهمية التحلي بالصبر والشجاعة والثبات في مثل هذه الظروف، وحذر من أن يدب اليأس والإحباط في نفوس العراقيين، مؤكداً على الصبر والمراعاة وعدم التنازع، وتحمل الصعاب والبأساء والضراء.

٣. خاطب المرجع الديني الأعلى القيادات السياسية ووضعهم أمام مسؤولياتهم التاريخية والوطنية والشرعية، وطلب من السياسيين العراقيين، أن يتركوا الاختلاف والتناحر خلال هذه الفترة العصيبة، ودعاهم إلى توحيد مواقفهم تجاه مواجهة العدو المشترك، وأن يدعموا القوات المسلحة؛ لأن توحيد السياسيين هو بمثابة (قوة إضافية لأبناء الحشد الشعبي والقوات الأمنية في الصمود والثبات).

٤. خاطب الإمام السيستاني؛ العسكريين العراقيين وقد أضفى على عملهم وأدائهم وتنفيذهم لواجباتهم (صفة القدسية)، وهي مرتبة متقدمة في التكليف الشرعي، بقوله: «إن دفاع أبنائنا في القوات المسلحة والأجهزة الأمنية هو دفاع مقدس»، ثم خاطبهم بقوله: «يا أبناءنا في القوات المسلحة؛ إنكم أمام مسؤولية تاريخية ووطنية وشرعية، اجعلوا قصدكم ودافعكم هو الدفاع عن حرمت العراق ووحدته، وحفظ الأمن للمواطنين، وصيانة المقدسات من الهتك، ودفع الشر عن هذا البلد المظلوم وشعبه الجريح»، ثم أكد على موقفه المساند كلياً للقوات الأمنية، فقال: «وفي الوقت الذي تؤكد المرجعية الدينية العليا دعمها وإسنادها لكم، تحثكم على التحلي بالمروءة

والبسالة والثبات والصبر».

٥. ومن اجل أن لا يعتري المشهد السياسي والعسكري حالة الانهزام والمهرب والخيانة لدى بعض أفراد المؤسسة العسكرية، فقد ذكرهم المرجع الأعلى بالجانب المشرق للأداء العسكري والأمني، ليزرع الأمل والثقة فيهم، حين يقدم شكره للكثير من الضباط والجنود الذين أبلوا بلاءً حسناً في الدفاع والصمود وتقديم التضحيات، ودعا الجهات المعنية إلى تكريم هؤلاء تكريماً خاصاً، لينالوا استحقاتهم والثناء والشكر (من قياداتهم) وليكون حافظاً لهم على أداء الواجب الوطني الملقى على عاتقهم.

٦. طالب المرجع الديني الأعلى عائلات وأسر العسكريين، بقوله: (والمطلوب أن يبحث الأب ابنه، والزوجة زوجها على الصمود والثبات دفاعاً عن حرمت هذا البلد ومواطنيه) وهذا يسري على جميع المتطوعين والمنخرطين في الجهاد المقدس للدفاع عن العراق.

٧. وصف الإمام السيستاني توجهات ومنهج وسلوك هؤلاء الإرهابيين المعتدين بقوله: «هو منهج ظلامي بعيد عن روح الإسلام، يرفض التعايش مع الآخر بسلام، ويتخذ من العنف وسفك الدماء، وإثارة الاحتراب الطائفي وسيلة لبسط نفوذه وهيمنته على مختلف المناطق في العراق والدول الأخرى».

وبذلك برهنت المرجعية الدينية العليا خلال السنوات الماضية، وفي أشد الظروف قسوة، أنها بعيدة كل البعد عن أي ممارسة طائفية، وهي صاحبة المقولة الشهيرة عن أهل السنة: «لا تقولوا إخواننا بل قولوا أنفسنا»، مؤكدة مراراً وتكراراً على الجميع، ومن بيدهم الأمر (السياسيين)، ضرورة أن تراعى حقوق العراقيين من جميع الطوائف والمكونات كافة على قدم المساواة، ولا يمكن في أي حال من الأحوال أن تخرض المرجعية العليا على الاحتراب بين أبناء الشعب الواحد، إنها هي تحت الجميع على العمل

لشد أواصر الألفة والمحبة بينهم، وتوحيد كلمتهم في مواجهة التكفيريين الغرباء.^(١)

فتوى الإمام السيستاني بالدفاع المقدس

اصدر المرجع الأعلى الإمام علي الحسيني السيستاني، ومن خلال صلاة الجمعة التي ألقاها الشيخ عبد المهدي الكربلائي في الصحن الحسيني الشريف فتوى الدفاع المقدس، لمواجهة التمدد التكفيري لعصابات داعش، التي تمكنت من السيطرة على مدينة الموصل، مركز محافظة نينوى شمالي العراق، في العاشر من حزيران عام ٢٠١٤.^(٢)

والتي دعا فيها المواطنين: (الذين يتمكنون من حمل السلاح ومقاتلة الإرهابيين دفاعاً عن بلدهم وشعبهم ومقدساتهم، للتطوع والانخراط في القوات الأمنية، وإن الأوضاع التي يمر فيها العراق ومواطنوه خطيرة جداً، ولا بد أن يكون لدينا وعي بعمق المسؤولية الملقاة على عاتقنا، أنها مسؤولية شرعية ووطنية كبيرة)، وبذلك صار واجباً وطنياً وتكليفاً شرعياً على كل من يستطيع حمل السلاح ومقاتلة الأعداء، المساهمة في درء الخطر عن الوطن والمقدسات، وإن الفتوى المباركة أوضحت طبيعة المخاطر المحدقة بالعراق التي تقتضي:

١. الدفاع عن هذا الوطن، وأهله ومقدساته ومواطنيه.
٢. هذا الدفاع واجب على المواطنين بالوجوب الكفائي، (بمعنى أن من يتصدى له وكان فيه الكفاية بحيث يتحقق الغرض، وهو حفظ العراق وشعبه ومقدساته يسقط عن الباقي).
٣. يتحمل المواطنون الذين يتمكنون من حمل السلاح ومقاتلة الإرهابيين كافة، الدفاع عن بلدهم وشعبهم ومقدساتهم، عليهم التطوع للانخراط في القوات الأمنية.

(١) الشيخ عبد المهدي الكربلائي، خطبة صلاة الجمعة، بتاريخ ١٣ حزيران ٢٠١٤، المصدر

السابق.

(٢) الشيخ عبد المهدي الكربلائي، المصدر نفسه.

ردود الفعل المباشرة للفتوى

١. انخراط الآلاف من المتطوعين في الفصائل والسرايا التي تشكلت من اجل ذلك، لتشكل في مجملها قوات الحشد الشعبي، والتي أصبحت تحت إشراف القائد العام للقوات المسلحة.
٢. أحدثت حماساً منقطع النظير لدى أبناء الشعب عامة بمختلف الشرائح والفئات الاجتماعية، اظهرت فيه روح الإيثار والتضحية من اجل الوطن والعقيدة.
٣. كانت منطلقاً لقهقرة الزمر التكفيرية والقضاء عليها، وقد حققت خلال سنة واحدة تقدم واضح لقوات الحشد الشعبي المدعومة من الجيش والشرطة الاتحادية.
٤. وضعت حداً للفتن الطائفية والحرب الأهلية التي كانت تلوح في الأفق، من خلال توحيد جميع مكونات الشعب العراقي، وقياداته السياسية تجاه هدف واحد وعدو واحد.
٥. هدأت التصريحات الإعلامية بين الاطراف السياسية والاجتماعية ضد هذا الطرف أو ذلك.^(١)

الحث على الشهادة

دعت المرجعية الدينية العليا ابناء العراق الى التضحية من اجل البلاد وإن من يضحى منهم في سبيل الدفاع عن بلده وأهله وأعراضه، فإنه يكون «شهيداً إن شاء الله تعالى»، والمطلوب أن يحث الأب ابنه، والأم ابنها، والزوجة زوجها على الصمود والثبات دفاعاً عن حرمت هذا البلد ومواطنيه، وهو غاية المنال.^(٢)

(١) صلاح عبد الرزاق، المصدر السابق.

(٢) الشيخ عبد المهدي الكربلائي، خطبة صلاة الجمعة، بتاريخ ١٣ حزيران ٢٠١٤، المصدر

المبحث الثاني

الفتوى تخدم نار الطائفية

أغلقت فتوى الدفاع المقدس كل الأبواب التي كان من المتوقع فتحها لافتعال حرب طائفية وأهلية، إذ كان المخطط إثارتها بين أبناء الشعب العراقي.

حيث كانت تلوح رياحها في الأفق قبيل الإعلان عن الفتوى المباركة، فقد عاش العراقيون عدة سنوات بين أزمات قومية (عربية_ كردية)، وأزمات مذهبية (شيعة_ سنية)، وأزمات أخرى شيعة_ شيعة، وغيرها مناطقية بين أبناء المحافظة الواحدة، مثلاً بغداد وبابل وديالى وغيرها، لأسباب سياسية في أغلبها، منها أولاً: عدم التوافق على القوانين والقرارات التشريعية، ثانياً: ما يعتبر تجاوز على الصلاحيات بما يخص التوافق الوطني، ثالثاً: بسبب التناحر الطائفي.^(١)

لذا ساهمت الفتوى المقدسة في توحيد الرأي العام العراقي تجاه قضية مصيرية تكمن في الدفاع عن الوطن والمقدسات، إذ ابتعد الجميع عن ممارسة كل أشكال إثارة الطائفية والقومية إلى حد ما، أو المساس بحقوق المواطنين التي كفلها الدستور، لاسيما أن الاستقرار السياسي والاجتماعي أصبح مرهوناً باحترام البعض للبعض الآخر، وعدم التجاوز على القانون تحت أي ذريعة.^(٢)

وإنّ مكافحة القوى التكفيرية التي لا تعرف إلا القتل والدمار، باتت في نظر

(١) عمار ياسر العامري، الأبعاد السياسية، المصدر السابق، ص ٣٥.

(٢) السيد احمد الصافي، خطبة صلاة الجمعة للمرجعية الدينية في الصحن الحسيني، بتاريخ ١

ربيع الأول ١٤٣٥ هـ الموافق ٣ كانون الثاني ٢٠١٤ م

الجميع مساهمة وطنية مهمة لا تختص بطائفة دون أخرى، لذا بات التسابق لإثبات النجاح سمة الجميع، وأن وقوف مكونات الشعب العراقي كافة خلف أبناء الحشد الشعبي والقوات الأمنية أفضل دليل على افسال المخططات التخريبية التي تسعى لها تلك القوى المنحرفة، حيث جسدوا قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُنِيرُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾^(١).

حيث أصبح كل الشعب العراقي يتن من الممارسات الإجرامية المشينة، والتي ينسبونها ظلماً وبهتاناً إلى الدين الإسلامي وهو منها براء.

ولادة الجيش العقائدي «الحشد الشعبي»

يعتبر الحشد الشعبي الوليد الشرعي لفتوى الدفاع المقدس، والركيزة الأساسية لإنقاذ الوطن والمقدسات من الإرهاب، ولولا ما كان هناك موطن اسمه العراق.

وبعد انطلاقته على اثر الفتوى التاريخية، لبي آلاف العراقيين نداء المرجعية الدينية العليا، بالتوجه لساحات الدفاع المقدس عبر السرايا الجهادية ليحققوا بطولات رائعة، بتحريرهم مدن حزام بغداد (الضاباطية وجرف النصر واليوسفية واللطفية) ومناطق أخرى: (والتي تعد مناطق حزام بغداد الأخطر؛ بعد سقوط الموصل وباقي المدن، كون التمدد الإرهابي أصبح على أسوار بغداد، ولولا صمود وتضحيات المجاهدين في تلك المناطق لأكثر من أربعة أشهر بوجه الإجرام التكفيري بعد صدور الفتوى المقدسة، وتحقيق انتصارات بارزة على مشارف العاصمة، لأصبحت بغداد غير الذي هي عليه حالياً، مما يدل على أن معارك تحرير حزام بغداد، كانت انعطافه مهمة في تاريخ فتوى الدفاع المقدس، كون أهداف الفتوى المقدسة قد تحققت في منع وصول الزمر الإرهابية للعاصمة بغداد، فضلاً عن المدن المقدسة كربلاء والنجف، وأيضاً إثبات وجود الحشد الشعبي كقوة عقائدية وقاتلية ضاربة، ما عزز استمرار الدعم الشعبي له).

(١) سورة الصف، الآية ٨.

ليأتي تصنيف مجلة (نيوز- ويك) الأميركية الواسعة الانتشار، في مقال اعتبرت فيه قوات الحشد الشعبي العراقية في المرتبة الرابعة كأقوى قوة قتالية وخطر تشكيل ضارب في العالم، وتعد هذه أفضل شهادة مهنية لا تمنح بشكل ارتجالي، إنما يأتي التصنيف بعد دراسات واستقراءات مستفيضة من قبل خبراء مختصين في الشؤون الحربية وقادة عسكريين، وسياسيين، ومستشارين أمنيين وعلماء نفس واجتماع.^(١)

حيث تأتي القوات الخاصة للبحرية الأميركية (نيفي - سيل) في المرتبة الأولى، وفرقة (ألفا) الروسية في المرتبة الثانية، وفرقة (ايكو - كوبرا) النمساوية في المرتبة الثالثة،^(٢) والكل يعرف أن الحشد الشعبي لم يكن مستعداً للقتال قبل صدور الفتوى المقدسة، إذ لم يكن مدرباً أو مجهزاً لوجستياً بشكل كافٍ، فضلاً عن عدم استلامه رواتب لأشهر عدة، ألا أن هناك إرادة غير منظورة، هي التي ميزت الحشد المقدس عن القوات الأمنية الأخرى، تكمن: بالإيمان بالله والقوة العقائدية التي يمتلكها، منطلقة من قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُوهُمْ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۗ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾^(٣)، وفيها سطر ما لم تحققه جيوش مستعدة منذ سنوات.^(٤)

لذا فإن الحشد الشعبي الذي أنجبته فتوى نائب الإمام الحجة عليه السلام، لا بد أن يبقى مقدساً، ليدافع عن الوطن، ويصون أرواح أبنائه، ويحافظ على المذهب ومقدساته، وأن لا يتحول الى مؤسسة ذات مضمون شكلي، لتحقيق أغراض دنيوية، ما يفقده هيئته وإرادته العقائدية.

(١) د. محمد هاشم البطاط وآخرون، في مواجهة داعش السيستاني والحشد الشعبي بعد احداث الموصل، ط ١، بغداد ٢٠١٦، ص ١٥٠.

(٢) حميد الموسوي، حشدكم رابعة قوة في العالم، مقال منشور على الشبكة العنكبوتية موقع الحقائق، بتاريخ ٢٠/٥/٢٠١٥.

(٣) سورة الأنفال، الآية ٦٠.

(٤) د. محمد هاشم البطاط وآخرون، في مواجهة داعش، المصدر السابق، ١٥١.

تشخيص أخطاء مرحلة ما قبل صدورها

اتضح للجميع بعد صدور فتوى الدفاع المقدس، أن من أهم الأسباب التي أدت إلى إرباك الوضع الأمني والسياسي في العراق، هو الانهيار الكبير الذي حصل في المؤسسات العسكرية والأمنية المتواجدة في المدن الغربية خاصة، ما ألقى بظلاله على بقية المناطق.

وبسبب تواجد اغلب القطعات العسكرية فيها، جعل هذا الانهيار مدخلاً لتمكن العصابات التكفيرية من السيطرة على مساحات واسعة من البلاد، إذ تم تشخيص أن المؤسسات الأمنية لم تؤد المهام المنوطة أليها بصورة صحيحة، وان من أهم تلك الأمور هو الفساد المالي والإداري المستشري في الوزارات الأمنية، حيث سيطرت المحسوبية والحزبية والفتوية على الهرم الإداري فيها، فضلاً عن تقلد بعض العناصر ذات العلاقات المشبوهة بحزب البعث مناصب متقدمة في وزارتي الدفاع والداخلية، وظهور ظاهرة بيع المناصب بمبالغ مالية عالية، ناهيك عن صفقات شراء الأسلحة التي شاهدها الكثير من الغموض في التعامل مع الدول المصنعة.

مما كان له اثر كبير في تضعيف تسليح المؤسسة العسكرية العراقية، فضلاً عن تولي المناصب فيها بالوكالة، لاسيما من قبل عناصر لم تكن مؤهلة في الجانب الأمني، بحيث فقد الوازع الديني والأخلاقي في التعامل مع ما أصاب الشعب العراقي اثر تلك الأحداث المأساوية^(١)، حتى صار مصداق لقوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾^(٢).

(١) عمار العامري، الأبعاد السياسية لفتوى الدفاع المقدس، مقال منشور على الشبكة العنكبوتية موقع شبكة أبناء العراق، بتاريخ ١١/٣/٢٠١٥.

(٢) سورة الروم، الآية ٤١.

وإن الفتوى المقدسة أثبتت أن الملف الأمني يعد من أهم الأولويات، ولا امن من دون مراجعة دقيقة وشاملة لكل مكانن الخلل الأمني؛ حيث إن الأمن في كل بلدان العالم يبتنى على أساس الاستراتيجيات، وليس ردود أفعال لأفعال تحدث بشكل متكرر، وإن مكافحة الإرهاب والتصدي لتمدده تتم عبر آليات عمل قصيرة وطويلة المدى، وحلول شاملة للجوانب السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية والتنموية، بالإضافة إلى العسكرية والأمنية.^(١)

وأثبتت الفتوى المباركة الحاجة لستراتيجية أمنية تقوم على أسس رصينة، تضع في أولوياتها إشراك جميع أبناء الوطن في مهمة الحرب على الإرهاب، بمعنى أن تكون المبادرة الهجومية بيد القوات الأمنية، ولا تكون فقط في خط المواجهة والدفاع عما يحدث، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٢).

فكثرت قبيل ذلك التفجيرات في الأسواق العامة والمدارس والمساجد والمؤسسات الحكومية، فلم تكن هناك محاسبة أو محاكمة للمقصرين في أداء الواجب، مما جعل نفس تلك المؤسسات ملاذاً آمناً للمفسدين والفاستدين، بدون تشخيص لمكانن الخلل الموجودة، وعدم محاسبة المقصرين بذلك.

سلطت الأضواء على حواضن الإرهاب الإقليمية

كشفت المرجعية الدينية من خلال فتوى الدفاع المقدس، للدول العربية والإسلامية، وبعد تهققر زمر الإرهاب التكفيري في العراق أن شره سيعود عليهم، حيث إن الدوائر السياسية التي تتساهل مع المجاميع الإرهابية، وترعى فكرهم الضال، وتسمح بتدريس أفكارهم وعقائدهم في معاهدها، وتسهم في إعداد المجاميع الانتحارية من الشباب

(١) د. محمد هاشم البطاط وآخرون، في مواجهة داعش، المصدر السابق، ص ١٦٥.

(٢) سورة المائدة، الآية ٣٥.

المضلل بهم، من أن داعش سيصل لبلدانهم، وسيتحين الإرهابيون الفرصة للانقضاض على دولهم ومجتمعاتهم؛ لأن الإرهاب لا يستهدف طائفة معينة، وسيستهدف الجميع ممن لا يؤيدون فكره المنحرف؛ لأن تراجعهم في البلدان التي تختلف مع الدول الراعية له عقائدياً وفكرياً، سيكون مستعداً للنيل ممن يراعه.^(١)

بالوقت نفسه أن تصاعد وتيرة النشاط الداخلي للتنظيم الإجرامي مع وجود أرضية تساعد في نمو تلك الزمر، ونتيجة لتضارب المصالح السياسية والاقتصادية في تلك البلدان، ستسهم باستغلال القوة الإجرامية لتصفية الحسابات الداخلية، مما يؤدي إلى هيمنة الإرهاب على زمام المبادرة، ما سيخلف دماراً مجتمعياً وحضارياً يؤثر على سياسة الدول نفسها، وإن المعارك التي تدور بين الجيش الحر وداعش في سوريا خير مثال على ذلك، وهم من طائفة واحدة، وأن التحرك الإرهابي للزمر التكفيرية في مناطق متعددة من العالم، هي مخططات إجرامية واضحة.

وإن الغاية من استهداف المساجد والحسينيات في المناطق المتداخلة مذهبياً، الهدف منها هو خلط الأوراق، واستدراج الشعوب لحرب طائفية أو مناطقية، وإن العصابات الإرهابية هي المستفيدة من الاحتراب الطائفي، بسبب توفر البيئة الملائمة لنموها وسطوة نفوذها وتوسعها على مساحات واسعة.

إثبات الزعامة الشرعية للمذهب

لقد أفرزت الفتوى المباركة القيادة الشرعية الحقيقية العليا للمذهب داخل العراق وخارجه، والمتمثلة بالمرجعية الدينية العليا في عصر الغيبة، وهي من توجه تلك القيادات.

فقبيل سقوط مدينة الموصل بيد الزمر التكفيرية، انقسم الشارع العراقي في داخله والعراقيون في الخارج حول مسألة من هو الزعيم الشيعي للمذهب؟ ومن يمثل وجوده

(١) عمار ياسر العامري، الأبعاد السياسية، المصدر السابق، ص ٤٦.

الحقيقي أمام بقية الطوائف والمكونات، لاسيما السنة والأكراد في العراق؟ لذا أثبتت الفتوى المقدسة أن المرجعية الدينية، هي الجهة القادرة والتمكنة فعلاً من الدفاع عن المذهب والوطن، والمطالبة بحقوق أبنائه على حد سواء، ولا يمكن لأحد أن يزايد على مواقفها وجهودها المباركة،^(١) كما جاء في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾.^(٢)

وإن أحداث الموصل كشفت من هم المدافعون عن الوطن؟ ومن هم هؤلاء المضحون من اجله بأعلى ما يملكون؟ ومن هم الذين كانوا يتسترون بالشعارات الزائفة؟ وواقعاً أولئك لم يستطيعوا الدفاع عن أنفسهم ووطنهم، خصوصاً بعدما تراحم أصحاب الادعاءات مع القادة الحقيقيين في أطروحة تمثيلهم (للبيت الشيعي) في أيام السلم والمهادنة، وإن الفتوى المقدسة جاءت لتفرز من هو المخلص في مشروعه؟ وهو من يمتلك احقيه تمثيله لأبناء المذهب كافة؟ فإن الذين أوقعوا الهزائم بالأعداء، اثبتوا فعلاً أنهم القيادة الشرعيون في كل المجالات، وهي المرجعية الدينية العليا كونها القيادة النائبة والصفوة المختارة للتمهيد لدولة الإمام الحجة بن الحسن المنتظر^(٣).

إبراز القيادات الوطنية الميدانية

ساهمت الفتوى المباركة، بزيادة اندفاع الشباب ورغبت نحو العمل الجهادي المسلح، ضمن تشكيلات الحشد الشعبي، وارتفاع مستوى الخبرة العسكرية لديهم، واثبات دورهم في إبراز كفاءة قوات الحشد الشعبي.

مما برز وجه الشيعة في مواجهة خطر المشروع التكفيري، حيث أفسدت الفتوى

(١) عمار العامري، الأبعاد السياسية لفتوى الدفاع المقدس، المصدر السابق.

(٢) النساء: ٥٩.

(٣) د. محمد هاشم البطاط وآخرون، في مواجهة داعش، المصدر السابق، ص ١٥٨.

المقدسة ما كانت تخطط له زمر داعش وماكينتهم الإعلامية إصاقه بالشيعة من حالة الخيانة والهزيمة، فيما لو استمر ما حدث في الموصل يوم ١٠ حزيران، ولكتب التاريخ عن هزيمة الشيعة (لا سامح الله) أمام فلول الإرهاب، فقد نظمت الفتوى الحشود الجماهيرية في منظومة عسكرية متكاملة لمواجهة عصابات مدربة ومجهزة حربياً، ولولا هذا الجهد الوطني، لما أصبح العراقيون اليوم يفتخرون بقوات الحشد الشعبي، الذي تأسس بفضل هذه الفتوى العظيمة.

وقد كشفت الفتوى المقدسة لنا عن أساء قيادية لامعة في الميدان الجهادي العسكري، ممن لم تكن لها أي عنوانين في هذا المجال، كما برزت لنا بعض الشخصيات ذات العناوين الدينية والاجتماعية، حيث قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾^(١)، والتي كانت تقارن بشخصيات أخرى، قد اختفت تماماً من الحضور الميداني ضمن سرايا المجاهدين، وبذلك فإن للفتوى المباركة دوراً كبيراً في تمحيص الرجال، وفضح المدعين بتاريخهم الجهادي زوراً وبهتاناً، ما زاد من رصيد الشيعة في بورصة القيادات الميدانية المخلصة ذات الأدوار المتعددة.^(٢)

وأثبتت دوراً للقيادات الميدانية المخضرمة، التي تمتلك باعاً طويلاً على صعيد تاريخ الجهاد ومقارعة الظالمين، كما صقلت مهارات القيادات الشابة، التي أثبتت جدارتها في القيادة العسكرية الميدانية، والتي يأمل أن يكون لها دور اكبر في حالة استمرار ساحة المواجهة العسكرية في المستقبل.

المحافظة على حضارة الوطن وتراث المقدسات

أسهمت الفتوى المباركة للمرجعية الدينية العليا في حفظ واستمرار حضارة العراق؛ لأن إقامة الحضارة لا يكون دون حفظ النظام، لذا ركز علماء الدين في هذا

(١) سورة العنكبوت، الآية ٦٩.

(٢) عمار ياسر العامري، الأبعاد السياسية، المصدر السابق، ص ٥٨.

الجانب على قاعدة حفظ النظام، وقد عرفها السيد أبو القاسم الخوئي بقوله: (هي مجموعة من القوانين لحماية الأنفس والأعراض).

فمن هذا المنطلق وجب تفعيل وتطبيق هذه القاعدة فهي عصب الحضارة، إذ لا تستقيم أي حضارة ما لم تتخذ من حفظ النظام ركيزة لها، كما أن حفظ النظام واجب شرعي من الناحية العقلية أيضاً؛ لأن العقل والفطرة تشعر أن الظلم قبيح، لذا فهو من الناحية النقلية والعقلية واجب، ويجب الدفاع عنه لما فيه من حفظ النفس والأعراض والأموال في المجتمع.^(١)

فكما أن قيام الحضارة يحتاج إلى نظام، فلا يمكن تفعيل أي نظام ما لم يكن له قائد وقيادة؛ ليست التي تأتي باعتبار عشائري أو اجتماعي أو وراثي، فضلاً عن الانتخاب السياسي، إنما القيادة هي الموقف، والقائد هو الذي يتميز بالمواقف، فالقيادة التي تحمل هموم المجتمع والفرد، وهذه الصفات تمثلت في النبي الأكرم ﷺ وأهل بيته الأطهار ﷺ، لذا سعى المعصوم ﷺ في إعداد القيادة المستمرة إلى عصر الظهور الشريف، لذا نقلوا صفات الواجب اتباعه في زمن الغيبة الكبرى، وهم الفقهاء فورد عن الإمام الحجة ﷺ في توقيعه الشريف: «وأما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا، فإنهم حجتي عليكم وأنا حجة الله»، وكذلك في رواية أخرى عن الإمام الصادق ﷺ: «ينظروا إلى من كان منكم ممن قد روى حديثنا، ونظر في حلالنا وحرامنا، وعرف أحكامنا، فارضوا فيه حكماً، فإني قد جعلته عليكم حاكماً».^(٢)

فان العلماء هم أمناء الله على حلاله وحرامه، واجب الاقتداء بهم واتباعهم، وإن فقهاء الشيعة ومراجعهم هم قادة المسيرة بكل أمانة، فقد حفظ التاريخ لهم مواقفهم الجبارة، لاسيما في العراق باعتباره مهد دولة العدل الإلهي، فعلماء العراق تشهد لهم

(١) د. محمد هاشم البطاط وآخرون، في مواجهة داعش، المصدر السابق، ص ١٦٢.

(٢) عمار ياسر العامري، الأبعاد السياسية، المصدر السابق، ص ٦٥.

المواقف أمثال زعيم الطائفة الإمام الحكيم وفتواه عن الشيوعية، والمرجع السيد الخوئي ودعمه للانتفاضة الشعبانية، إلى أن وصلت للسيد السيستاني.

والذي تميز بمزايا الحكمة وبعد النظر، فعندما نقرا هذه الشخصية تتجلى فيه تلك الصفات؛ إذ إنه لا يعثر الكلمات إطلاقاً، ويقتصر على الكلمة التي لها تأثير كبير، ويكون لها حضورٌ واسعٌ، كما انه ينظر إلى المستقبل.^(١)

فعندما بدأ الهجوم على مدينة الموصل من قبل المد التكفيري، أطلق فتواه بالدفاع المقدس، والتي تشمل كل العراقيين في حفظهم من ذلك الخطر، فلم تكن على أساس طائفي أبداً، لذا تعاضد الشعب العظيم مع الفتوى العظيمة في تليتها، أي تجلت عظمة القائد بعظمة الشعب، وبذلك حفظ حضارة العراق وتراث الحضاري.

كشفت أزمة الوعي والمعرفة في المجتمع

كشفت الفتوى المقدسة أن بعض ممارسات البناء التربوي والمعرفي الحالي في العراق غير قادرة على بناء شخصية الفرد بناءً علمياً ومهنياً وأخلاقياً، وغير قادرة على أن تجعل منه شخصاً صالحاً ليمارس دوره في المستقبل، بسبب عدم وجود تغيير في البناء الثقافي والفكري، لاسيما في حالة البقاء على نفس المناهج الدراسية والمعرفية.

وكذلك أظهرت افتقار اغلب الشرائح الوظيفية للثقافة الوطنية، فتبين أن الأغلب في العراق يدرس ويتعلم ليس من اجل المعرفة والاستشراف المستقبلي، إنما من اجل الوظيفة والتعيين، لذا تجده يمارس شتى الأساليب لتحقيق أغراض محددة، هذا ما انعكس سلباً على بناء جيل مؤمن بعملية التغيير في العراق، غير قادر على مواكب البناء السليم لمجتمع صالح^(٢)، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا

(١) السيد احمد الصافي، خطبة صلاة الجمعة خطبة صلاة الجمعة للمرجعية الدينية في الصحن الحسيني، بتاريخ ٢١ شعبان ١٤٣٥ هـ الموافق ٢٠ حزيران ٢٠١٤ م.

(٢) عمار العامري، التصحر الفكري وتأثيره السلبي على العراق، مقال منشور في صحيفة

يَعْلَمُونَ^(١)، فضلاً عن ظواهر أخرى في العراق، منها اجتماعية وصحية ونفسية تحتاج إلى المزيد من التطوير لأهميتها، وتوجيه العناية ورعاية لها، لأنها ظواهر مهمة لها؛ شأن في بناء شخصية الإنسان العراقي، ورفيقه وانتشاله من كثير مما يهدده تربوياً واجتماعياً وصحياً^(٢).

وتبقى من أهم المشاكل في العراق هي مشكلة الأمية، فكما أن هناك معركة تحدٍ مع الإرهاب، فهناك معركة تحدٍ مع الجهل والفقر المعرفي، وهناك أرقام كبيرة لأعداد الأميين في العراق، ليس فقط في الأمية الهجائية أو الأبجدية، وإنما الأمية في المجالات الأخرى، كالأمية المهنية أو التقنية أو الثقافية أو البيئية أو الصحية أو المعلوماتية أو الدينية أو الحاسوبية، وهذا أمر خطير بالنسبة لشعب كالعراق أن يعيش أزمة وعي لما يحدث حوله أو يدخل في صميم حياته، خاصة في الجوانب الفكرية والعقائدية، لذا فإن فتوى المرجعية العليا جاءت لتنبيهه على كل ما يحدث، لتضع الجميع أمام مسؤولية كبيرة في مرحلة مهمة من مراحل تاريخ العراق المعاصر^(٣)، لان مشكلة الأمية ذات تبعات ليست تعليمية فقط، إنما اقتصادية واجتماعية خطيرة، وما يترتب عليها من أزمة وعي وتخلف حضاري و جهل وفقر وبطالة، وأن الإنسان الأمي أكثر تعرضاً للموت والمرض من الإنسان الواعي.

تأكيد دور العشائر في دعم فتاوى المرجعية

تعد العشائر العراقية، ركيزة أساسية في حفظ النسيج الاجتماعي والدفاع عنه عبر

المثقف العراقي، العدد/ ١٧٩٥، بتاريخ ٢١/٦/٢٠١١.

(١) سورة الزمر، الآية ٩.

(٢) السيد احمد الصافي، خطبة صلاة الجمعة خطبة صلاة الجمعة للمرجعية الدينية في الصحن

الحسيني، بتاريخ ٢٩ ربيع الأول ١٤٣٥ هـ الموافق ٣١ كانون الأول ٢٠١٤ م.

(٣) الشيخ عبد المهدي الكربلائي، خطبة صلاة الجمعة للمرجعية الدينية في الصحن الحسيني،

بتاريخ ٢١ ربيع الثاني ١٤٣٥ هـ الموافق ٢١ شباط ٢٠١٤ م.

التاريخ المعاصر، حيث كان لها مواقف وطنية مشرفة، والعشائر العراقية، تختلف عن مثيلاتها في البلدان الأخرى، كونها تتكون من نسيج اجتماعي متجانس، يجمع أطباع البداوة ونكهة الريف، مع حضارة المدن، ما يجعلها لا تميل للتعصب القبلي، البعيد عن روح الإسلام.

وإن تمسكها بفتاوى المرجعية الدينية، وتقديم أبنائها قرايين للوطن والمقدسات، دليل عن عمق العلاقة، وقوة الأصرة بين المرجعية والعشيرة والوطن، حيث قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾^(١)، إذ لاقى صدور الفتاوى ترحيباً واسعاً لدى العشائر، للدفاع عن البلاد والمقدسات، فمنذ التصدي للاحتلال البريطاني، أثناء عشرينيات القرن الماضي، مروراً بمواجهة العشائر للأنظمة الحاكمة، فضلاً عن الانتفاضة الشعبانية المباركة، التي كانت عنواناً بارزاً لذلك التلاحم المصري، أما فتوى الدفاع المقدس والاستجابة لها فقد سطر أبناء العشائر أروع المواقف الوطنية، ولم يقتصر دورهم على الدفاع عن الوطن، إنما تعداه للمحافظة على البناء الاجتماعي وحماية الممتلكات العامة، ونبذ الخلافات سعياً للقضاء عليها.^(٢)

كما أسهمت بعض العشائر، بخلق بيئة أمنة، لعودة النازحين إلى أوطانهم، مع تقديم الدعم للجهات الأمنية، وعدم استخدام السلاح بشكل عشوائي، وتبني المنهج الإسلامي والوطني، من خلال إقامة مبادرات المصالحة الوطنية، والإسهام بالتقاء الجميع في نقطة المنتصف، تماشياً مع فتوى المرجعية العليا، إذ تعتبرها مسؤولية دينية وتاريخية منطلقة من أخلاق وسلوكيات أبنائها، لإشاعة روح المحبة والأخوة والتلاحم

(١) سورة الحجرات، الآية ١٣.

(٢) عمار العامري، دور العشائر في حفظ النسيج الاجتماعي، مقال منشور على الشبكة العنكبوتية

موقع صوت العراق، بتاريخ ٢٧/٢/٢٠١٥.

والتضافر^(١).

يتضح لنا أن العشائر العراقية، هي الساعد المتين للمرجعية الرشيدة للدفاع عن العراق، والذود عن مقدساته، وأخذ زمام المبادرة، للعبور إلى بر الأمان، بالقضاء على محاولات النيل من الشعب العراقي.

تعزيز مكانة الشهيد في بيئته الاجتماعية

شهدت مرحلة ما بعد صدور فتوى الدفاع المقدس، تقبلاً واضحاً داخل الأسرة العراقية والبيئة الاجتماعية لتقديم أعداد من أبنائها شهداء من أجل العقيدة والوطن. برز هذا بعدما كانت مظاهر الحزن والنكد والوجوم مهيمنة على عائلة الشهيد وبيئته، فضلاً عن عدم تعاطي أغلب المجتمعات مع حالات الاستشهاد اثر الأعمال الإجرامية، التي اكتسحت الشارع العراقي خلال السنوات العشر الماضية، بالشكل الذي يتناسب وما للشهيد من مكانة في القرآن الكريم والشريعة الإسلامية.

ولكن الفتوى المباركة أعطت الشرعية الكاملة لأي شخص ينال وسام الشهادة وأن اي شخص يقتل في مواجهة زمر داعش الارهابية يعد شهيداً بدون أي استفسامات، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾^(٢)، وأخذت أسر الشهداء وعشائرتهم ومدنهم، تتباهى بتقديمها شهيداً أو جريحاً دفاعاً عن الوطن والمقدسات، وتعدده وسام شرف وعز وكرامة، لا ينال ذلك المقام المحمود إلا ذو حظ عظيم.

وقد شوهدت الكثير من حالات التعبير عن الفرح والابتهاج، والتحميد لله والثناء عليه، خاصة في تشييع جثامين الشهداء أو في مجالس العزاء على ما تمنح الأسر من رفيع المنزلة، وهذا يؤكد ارتفاع الوعي الجماهيري والمجتمعي، مما جعل ذلك عاملاً إضافياً

(١) عمار ياسر العامري، الأبعاد السياسية، المصدر السابق، ص ٧١.

(٢) سورة آل عمران، الآية ١٦٩.

لتدافع إخوانه وأبنائه وأبناء بيئته أو من يسمع بذلك نحو المشاركة لنيل هذا الوسام أو تحقيق النصر.

فباتت مظاهر السرور والتفاخر ملموسة لدى أسر الشهداء، وخاصة الشباب مما يعكس انطباعاً إيجابياً لتشجيع الآخرين، من قبل الأمهات والزوجات فضلاً عن الآباء وأولياء الأمور، بالاستمرار في هذه المسيرة المباركة.

الخاتمة

إن فتوى الدفاع المقدس التي أصدرها المرجع الديني الأعلى الإمام علي السيستاني، خلال صلاة الجمعة والتي ألقاها الشيخ عبد المهدي الكربلائي في الصحن الحسيني الشريف بتاريخ ١٣/٦/٢٠١٤، لمواجهة التمدد التكفيري لعصابات داعش، بعد تمكنها من السيطرة على مدينة الموصل، مركز محافظة نينوى شمالي العراق، في العاشر من حزيران عام ٢٠١٤، ليست ذات مغزى عسكري وأمني فقط، لصد تمدد العصابات الإرهابية، التي كانت تنوي إسقاط حكومة بغداد، بذريعة الدفاع عن حقوق طائفة معينة، إنما كانت للفتوى المقدسة مضامين سياسية واجتماعية متعددة؛ لأنها تعد من نواذر الفقه الشيعي، فطوال قرن من الزمن، ورغم صدور العديد من الفتاوى الجهادية الدفاعية المماثلة، لم نجد هناك فتوى أوضح إبعاداً واشمل مدلولات بالشكل والمضمون، تبرز خلال فترة زمنية لم تتعد السنة، فكل تلك الفتاوى المباركة، التي سبقتها لم تشخص أبعادها إلا بعد ما لا يقل عن عقد من الزمن، أو أنها تقتصر على بُعد معين رغم أهميته، إلا فتوى الدفاع المقدس للإمام السيستاني، وبسبب التداعيات العقائدية والفكرية والسياسية والاجتماعية، التي تسببت بصدورها، فضلاً عن حالة الغليان نتيجة اجتياح بلد كالعراق، يمتلك إراثاً دينياً وحضارياً وتاريخياً، ويعتبر عاصمة دولة التمهد للظهور الشريف لمقام الحجة المهدي المنتظر عليه السلام، من قبل عصابات إجرامية تحمل أفكاراً تكفيرية مدعومة إقليمياً ودولياً، وتسعى لتدمير الثقافات والحضارات المتعاقبة في العراق منذ أكثر من (٦٠٠٠) سنة.

حيث ثبت من خلال الفتوى المقدسة إخمادها بواذر الفتن الطائفية والحرب الأهلية

المخطط لإشغالها، والتي كادت تجر المنطقة إلى تقسيمها الجيو سياسي، رسمت حدوده في دوائر المخابرات الإقليمية والدولية، كما أن الفتوى المقدسة شخّصت أخطاء مرحلة ما قبل صدورها، ليكون العراق والعالم بعد ذلك أمام حقيقة ولادة «الحشد الشعبي» الوليد الشرعي لفتوى الدفاع المقدس، والركيزة الأساسية لإنقاذ الوطن والمقدسات، الذي استطاع بالتوكل على الله وإرادته العقائدية مسك زمام المبادرة الأمنية والعسكرية على الأرض، وإلا ما كان هناك موطن اسمه العراق.

إن فتوى الدفاع المقدس للسيد السيستاني شكلت منعطفاً مهماً في حياة العراقيين عامة والشيعية خاصة، وإنها أنهت السجال والجدل غير المباشر حول مسألة من هي الزعامة الشرعية للمذهب؟ فقد أثبتت المواقف والتوضيحات الجسام، بأن المرجعية الدينية هي الزعامة الحقيقية للإرث الحضاري والتاريخي للشيعية، وأيضاً أغلقت الأبواب أمام الانتهاك المتوقع لحرمة المقدسات، بفضل اندفاع المجاهدين والقيادات الميدانية بعد استجابتهم على مختلف منابعهم ومشاربهم وتوجهاتهم للتصدي للزمر التكفيرية التي أرادت تدمير حضارة بلاد الرافدين، كما أن لأبناء العشائر الأصيلة الدور الكبير بالوقوف بحزم لإفشال كل مخططات الإرهاب، الذي تمادى وذنس ارض الأنبياء، لأسباب منها: انخفاض المستوى المعرفي للنخب المتصدية في المجالات الاجتماعية والتعليمية، والذي خلف أزمة في الوعي المجتمعي والسياسي فضلاً عن الفكري.

ولم تقتصر المرجعية الدينية على إصدار الفتوى المقدسة، وإنما قدمت بعدها لائحة (المقاتل المثالي)، وهي مجموعة من التوصيات التي أصدرها السيد السيستاني، لتكون بمثابة مسارات وإرشادات ليس فقط لمجاهدي الحشد الشعبي والقوات الأمنية في العراق، وإنما تصلح أن تكون (لائحة لحقوق الإنسان) في الجانب العسكري والحربي لكل جيوش العالم.

ويتبين مما سبق أن حكمة المرجع الديني الأعلى السيد علي السيستاني وبعده نظره، وإطلاعه التفصيلي على الإحداث السياسية والاجتماعية، جعلته يتخذ القرار المناسب بالوقت المناسب، ليبقى صوت المرجعية الدينية عالياً شامخاً على جميع الأصوات، فكان إصداره للفتوى علاجاً مناسباً وضرورياً، لتصحيح الممارسات الخاطئة التي ارتكبت، ودليلاً على عقليته القيادية وقيادته الحكيمة والحريصة على الأمة؛ إذ إن فتوى الدفاع المقدس مثلت قوة وجود المرجعية الدينية العليا، وقراءتها الاستشرافية للمستقبل.

وأخيراً وليس آخراً لا أدعي الكمال فيما قدمته، إذ إنه جهد إنساني، يتحمل الصواب والخطأ، ويبقى الكمال لله وحده، وهو ولي التوفيق والسداد.

الباحث

ملخص بحث / قراءة في فتوى الدفاع المقدس للإمام السيستاني

تعد زعامة المؤسسة الدينية الشيعية (المرجعية الدينية العليا في النجف الاشرف) الأقوى قراراً بين الزعامات الدينية في العالم الإسلامي والديانات الأخرى، وأصوبها رأياً، وأكثرها استقلالاً، طيلة مئات السنين الماضية، منذ أن وطأ الشيخ الطوسي ارض النجف الاشرف عام ٤٤٨هـ / ١٠٢٧م حتى تقلد سماحة المرجع الديني الأعلى الإمام علي الحسيني السيستاني زعامة الحوزة العلمية في النجف الاشرف عام ١٩٩٣م / ١٤١٣هـ.

وقد مرت مرجعية الإمام السيستاني بعدة مراحل مهمة متعددة، الأولى مسؤوليته بالمحافظة على الحوزة العلمية بالنجف الاشرف، والمرحلة الثانية: مواكبة التغييرات السياسية التي حدثت بعد عام ٢٠٠٣م، ومعالجته للتحديات الخطيرة اتجاه أبناء الشعب العراقي، وكان التحدي الأول: دعوته للعراقيين كافة للمشاركة بالاستفتاء على الدستور الدائم عام ٢٠٠٥م، والتحدي الثاني: يكمن في إخماده لنار الطائفية بعد تعرض مرقد الإمامين العسكريين عليهما السلام عام ٢٠٠٦م للتفجير من قبل الزمر التكفيرية، أما المرحلة الثالثة: عندما تعرض العراق لاجتياح العصابات الإرهابية لمدينة الموصل في ١٠ حزيران ٢٠١٤، فبادر سماحته لإصدار فتواه (بالدفاع المقدس) والتي لم تصدر مثلتها في العالم الإسلامي منذ مئة عام خلت.

لم تكن الفتوى المقدسة ذات مغزى عسكري وأمني فقط، لصد تمدد العصابات الإرهابية، التي كانت تنوي إسقاط حكومة بغداد، بذريعة الدفاع عن حقوق طائفة معينة، إنما كانت للفتوى المقدسة مضامين سياسية واجتماعية متعددة؛ لأنها تعد من

نوادق الفقه الشيعي، فطوال قرن من الزمن، ورغم صدور العديد من الفتاوى الجهادية الدفاعية المماثلة، لم نجد هناك فتوى أوضح إبعاداً واشمل مدلولات بالشكل والمضمون، تبرز خلال فترة زمنية لم تعد السنة، فكل تلك الفتاوى المباركة، التي سبقتها لم تشخص إبعادها إلا بعد ما لا يقل عن عقد من الزمن، أو أنها تقتصر على بُعد معين رغم أهميته، إلا فتوى الدفاع المقدس للإمام السيستاني، وبسبب التدايعات العقائدية والفكرية والسياسية والاجتماعية، التي تسببت بصدورها، فضلاً عن حالة الغليان نتيجة اجتياح بلد كالعراق، يمتلك إراثاً دينياً وحضارياً وتاريخياً، ويعتبر عاصمة دولة التمهيد للظهور الشريف لمقام الحجة المهدي المنتظر عليه السلام، من قبل عصابات إجرامية تحمل أفكاراً تكفيرية مدعومة إقليمياً ودولياً، وتسعى لتدمير الثقافات والحضارات المتعاقبة في العراق منذ أكثر من (٦٠٠٠) سنة.

حيث ثبت من خلال الفتوى المقدسة إخمادها بوادر الفتن الطائفية والحرب الأهلية المخطط لإشعالها، والتي كادت تجر المنطقة إلى تقسيمها الجيو سياسي، رسمت حدوده في دوائر المخابرات الإقليمية والدولية، كما أن الفتوى المقدسة شخّصت أخطاء مرحلة ما قبل صدورها، ليكون العراق والعالم بعد ذلك أمام حقيقة ولادة «الحشد الشعبي» الوليد الشرعي لفتوى الدفاع المقدس، والركيزة الأساسية لإنقاذ الوطن والمقدسات، الذي استطاع بالتوكل على الله وإرادته العقائدية مسك زمام المبادرة الأمنية والعسكرية على الأرض، وإلا ما كان هناك موطن اسمه العراق.

إن فتوى الدفاع المقدس للسيد السيستاني شكلت منعطفاً مهماً في حياة العراقيين عامة والشيعية خاصة، وإنها أنهت السجال والجدل غير المباشر حول مسألة من هي الزعامة الشرعية للمذهب عامة؟ فقد أثبتت المواقف والتوضيحات الجسام، أن المرجعية الدينية هي القيادة الحقيقية للإرث الحضاري والتاريخي للشيعية، وأيضاً أغلقت الأبواب أمام الانتهاك المتوقع لحرمة المقدسات، بفضل اندفاع المجاهدين والقيادات

الميدانية، والذين برزوا البعد الوطني للفتوى المقدسة، بعد استجابتهم على مختلف منابعمهم ومشاربهم وتوجهاتهم للتصدي للزمر التكفيرية التي أرادت تدمير حضارة بلاد الرافدين، كما أن لأبناء العشائر الأصيلة الدور الكبير بالوقوف بحزم لإفشال كل مخططات الإرهاب، الذي تمادى وذنس ارض الأنبياء، لأسباب منها: انخفاض المستوى المعرفي للنخب المتصدية في المجالات الاجتماعية والتعليمية، والذي خلف أزمة في الوعي المجتمعي والسياسي فضلاً عن الفكري.

ولم تقتصر المرجعية الدينية على إصدار الفتوى المقدسة، وإنما قدمت بعدها لائحة (المقاتل المثالي)، وهي مجموعة من التوصيات التي أصدرها السيد السيستاني، لتكون بمثابة مسارات وإرشادات ليس فقط لمجاهدي الحشد الشعبي والقوات الأمنية في العراق، إنما تصلح أن تكون (لائحة لحقوق الإنسان) في الجانب العسكري والحربي لكل جيوش العالم.

وإن حكمة المرجع الديني الاعلى السيد السيستاني وبعده نظره، واطلاعه التفصيلي على الأحداث جعلته يتخذ القرار المناسب بالوقت المناسب، ليقى صوت المرجعية الدينية عالياً شامخاً على جميع الأصوات، فكان اصداره للفتوى علاجاً مناسباً وضرورياً، لتصحيح الممارسات الخاطئة التي ارتكبت، ودليلاً على عقليته القيادية وقيادته الحكيمة والحريصة على الأمة، حيث مثلت قوة وجود المرجعية الدينية العليا، وقراءتها الاستشرافية للمستقبل.